أوريئيل أوفك

الحذر ! سمٌّ قاتل
سلسلة قصص الفتيان «حسمبا» ليغئال موسينزون

صدرت في اسرائيل، مؤخراً، طبعة جديدة من سلسلة قصص الفتيان «حسمبا» لمؤلفها يغئال موسينزون. وهي من أوائل سلاسل قصص الفتيان المكتوبة باللغة العبرية بعد ١٩٤٨. ويمكن إدراجها ضمن «جانر» كتب المغامرات المثيرة، الذي كان شائعاً إلى أقصى الحدود في تلك السنوات.

صدر أول كتاب من هذه السلسلة في ١٩٥٠. وظل مؤلفها يكتب حلقات جديدة منها حتى قبيل وفاته (في ١٩٩٤ عن ٧٧ عاماً) بسنوات قليلة. وقد أظهرت استطلاعات للرأي، أجريت في الخمسينيات من القرن العشرين، أن قصص «حسمبا» تبوأت مرتبة متقدمة جداً في قائمة أكثر الكتب الشعبية التي يستهويها «القراء الصغار» بين اليهود الاسرائيليين، إلى درجة أنها تفوقت على أشهر القصص الأجنبية للفتيان مثل «روبنسون كروزو» و«جزيرة الكنز» و«أليس في بلاد العجائب» و«ماكس وموريتس» و«توم سوير» و«ثمانون ألف ميل تحت سطح المياه» وغيرها.

وكان للإنسان العربي حضور بارز في قصص «حسمبا» تلوَّن بالصبغة العامة، العنصرية في جوهرها، التي تميزت بها عموماً «النظرة الثقافية» الصهيونية حياله، بل إن ثمة أبحاثاً كثيرة تشير، دون مداورة، إلى كون هذه القصص أرست «المدماك الأول» في تشييد الموقف التنميطي المقولب من العربي، لمجرّد كونه كذلك، وهو ما واصلته سلاسل قصص أخرى يصعب حصرها، خصوصاً في الخمسينيات والستينيات وحتى أواسط السبعينيات من القرن المنقضي.

هذا ما يؤكده، على سبيل المثال وليس الحصر، المقال التالي الذي كتبه الباحث التربوي وكاتب الأطفال أوريئيل أوفك، بعد أن أمضى سنوات عديدة في تدريس موضوع أدب الأطفال في عدة جامعات وكليات لإعداد المعلمين في اسرائيل. وقد ظهر في كتابه الموسوم بعنوان «أعطوهم كتباً» الصادر في ١٩٧٨ عن منشورات «سفريات پوعليم». وأشير في سياقه إلى المترتبات العنصرية لمثل هذه السلاسل العنصرية، الفاسقة والخطيرة، على «القراء اليهود الصغار» الذين أصبحوا في الوقت الحالي الجيل المتحكم في مختلف مؤسسات الدولة، العسكرية والمدنية.

(أ. ش)

معمل المغامرات والمكائد

«هذه هي لحظاتنا الأخيرة. لن نستسلم للأسر. الموت أفضل من أن تصبح عبداً. هل صدقت؟».

في أكثر الأشكال دهشة، دون أن يتبادلوا الحديث فيما بينهم، انطلقت من أفواه الفتيان الأبطال صرخة الحرب الشهيرة بمعنويات عالية يندُر أن يحظى بها إنسان في حياته: حسمبا! حسمبا! حسمبا!.

هذه السطور المقتبسة من قصة «حسمبا في أسر الجيش العربي» (ص١٢٦) ليغئال موسينزون هي مثال نموذجي لـ «مواقف الذروة، التي تعجّ بها مئات الكتب من إنتاج معمل قصص المغامرات والمكائد ذي الماركة الإسرائيلية المسجلة. ورغم أن سلسلة «حسمبا» كانت «أولى الطلائع» في هذا المعمل، التي استجرّت وراءها سيلاً لم ينقطع من عمليات تقليدها السيئة والفاسقة، فمن الأجدر بنا أن نبدأ الكلام حول خطورة منتوج هذا المعمل بحديث مقتضب حول سلسلتين مترجمتين من قصص المغامرة سبق صدورهما بدء صدور «حسمبا»، وما زالتا مقروءتين بغلواء شديد، من جانب الفتيان هواة المغامرات المثيرة.

لم يكفّ أولاد إسرائيل وفتيانها، مثلهم مثل فتيان العالم كافة، عن كونهم قراء متحمسين لمختلف القصص حول الهنود الحمر. ومن بين جميع الكتّاب، الذين ألفوا هذه القصص، بقيت كتب «كارل ماي» في رأس سلم الشعبية ضمن هذا «الجانر» الأدبي.

و«ماي»، الذي كتب قصصه الأولى خلف قضبان السجن، نشر على مدار عشرين سنة أكثر من سبعين كتاباً تحكي الغالبية الساحقة منها، إن لم تكن جميعها، بضمير المتكلم، عن الوقائع المدهشة في سيرة حياة مغامر ألماني الجنسية يواجه وضعيات خطيرة ويفلح، بفضل قوته الجسدية الخارقة التي لا تخور وبفضل خصائصه النبيلة، في أن ينجو بجلدة منها جميعاً. وليس هذا فحسب، وإنما يفلح أيضاً في أن ينقذ أصدقاءه وزملاءه وفي أن يحقق العدالة.

وكثيراً ما تعرّض «ماي» لهجوم حادّ بسبب أسلوب كتابته. غير أنه عندما كان عرضة لذلك وهو على قيد الحياة ردَّ على هذا الهجوم باستخفاف عبّر عنه قوله التالي: «ثمة من يقول إنني أكتب بأسلوب يعتبر مثالاً يحتذى به. وثمة من يقول إنني أفتقد أي أسلوب في الكتابة، بينما يقول آخرون إنني أمتلك أسلوباً كهذا، لكنه سيء. أنا شخصياً غير منشغل أبداً بقضايا أسلوب الكتابة، وأواصل كتابة الجمل التي تخرج من دماغي».

وبسبب الشعبية المستمرة لقصص «ماي» أجرى باحث الأدب الألماني «راينر جاجلمان»، في ١٩٦٥، استفتاء في أواسط الأدباء ورجال الفكر

حسمبا: في أسر الجيش العربي/الكتاب الثامن

طُلب إليهم من خلاله أن يجيبوا عن السؤال التالي: «هل يتوجب على الفتيان أن يقرأوا كارل ماي؟». غالبية الذين شملهم هذا الاستفتاء اعترفوا بأنهم، في سنوات فتوتهم، قرأوا قصص «ماي»، ورغم أن آراءهم حوله تغيرت فهم يعتقدون أنه لا ينبغي فرض رقابة على قراءة الأطفال والفتيان. ومن بين الأجوبة جميعاً على هذا الاستفتاء تميّز، أكثر شيء، الجواب القصير والمتشكك الذي أدلى به «أريك كاستنر» حين كتب (بعد التماس العذر من السائل على تأخره في الردّ عليه) ما يلي:

«إنني أنتمي إلى الكائنات البشرية التي لا تكنّ الودّ لكارل ماي. في صغري تصفحت كتاباً أو ربما إثنين من كتبه، وبكل بساطة لم يعجبني. وعليه فلا تدع لكتب ماي أن تفسد عليك متعك وذوقك».

لكن يبدو أن النقيصة الرئيسة في كتب «ماي» ليست منحصرة، بالذات، في أحداثها المفتقرة إلى الصدقية والتي تدور في أماكن لم تطأها قدم الكاتب في حياته قطّ. كما أنها ليست منحصرة في أسلوبها

الشعاراتي، وإنما بمنأى عن ذلك كله في الطريقة التي يعرض بواسطتها الذوات الفاعلة فيها من بني البشر: الهندي الأحمر ڤينتو والصيّاد أولد شورهاند، وفي الأساس المغامر الأبيض الأسطوري. هذا البطل الأخير يتم عرضه ليس كإنسان من لحم ودم وإنما كإنسان متفوق (ألماني!) شديد القوة والبأس، قادر على كل شيء وعارف لكل صغيرة وكبيرة، مجبول من طينة خاصة لا تشوبها شائبة، عديم المأوى والأسرة، يتكلم بكل لغات الأرض، يطبّب المرضى وملمّ بتقصّي الأثر، زاهد عن الجنس والنساء، طيّب القلب ونبيل النفس، قنّاص ماهر لا تحركه غريزة القتل، لا يخطئ المرمى بتاتاً ويتخلص من كل مشكلة تواجهه وتكون كفته راجحة على الدوام.

أفليست رائحة العنصرية هي التي تنبعث من هذا التوصيف لإنسان أبيض متفوق كامل الأوصاف والخصائص؟

ما العجب إذاً في أن تحوز قصص «ماي» على شرعية رسمية في ألمانيا النازية وأن يتم إرسالها كهدايا إلى جنود «القيرماخت» في جبهات القتال؟.

وما الغرابة في أن أوصافه ساهمت في تكريس مصطلحات مشوّهة حول الجنس البشري، كما اعترفت فتاة قارئة في ربيعها الثاني عشر حين قالت: «الرجل الأبيض في كتب كارل ماي على حقٍّ دائماً»؟.

حوالي ثلاثين من كتب «ماي» ترجمت إلى اللغة العبرية في فترات متباعدة. نذكر من بينها «الرئيس الهندي الأحمر» (ترجمة م.ز. وولفوبسكي، ١٩٤٢)، «لصوص الصحراء» (ترجمة أ.أ. عقبيا، ١٩٤٨)، «يد الانفجار» (ترجمة ي. هيرشبرغ، ١٩٥٢)، «الغرب المتوحش» (ترجمة ح. ترسي، ١٩٥٣)، «ڤينتو» (ترجمة نوح مان، ١٩٥٧)، «أولد شورهاند» (ترجمة عوديد أفيسار، ١٩٦٨)، «قصص كارل ماي» (ترجمة ب. فيكسلير، ١٩٦٨) وغيرها.

بيد أن أغلبية المترجمين أضفوا على قصص «ماي» أسلوباً أكثر تشذيباً ورقياً مما هو في الأصل. ومع ذلك لم يكن في الإمكان تنظيفها بالكامل من لغة الأبطال ذات النبرة التفوقية، ومنها مثلاً:

«لا تتكلم مع هذا الكلب! هو أيضاً سيموت لا محالة. وربما مع كل ذلك لن يموت. صاحب الوجه الشاحب المسن هذا هو مجرّد قط بائس، وينبغي عدم إماتته عملياً وإنما طرده بلسعات السوط، هذا الجبان!».

(من قصة «ڤينتو ويد النار» – ترجمة ح. ترسي، ص١٣٧).

ونظراً لكون كتب «كارل ماي» لا تزال شعبية للغاية في أوساط العديد من الفتيان والفتيات، فلا غرو أن يجيب فتى في العاشرة والنصف من عمره، من أحد الكيبوتسات، على استفتاء حول القراءة أجري في ١٩٦٨ بما يلي:

«البطل الذي كنت راغباً بأن أكونه هو يد الانفجار (لقب البطل الرئيسي، المتفوق). لماذا؟ أ – لأنه قنّاص بارع. ب – لأنه قوي جداً. كنت راغباً بأن أكون زعيماً، لأن الزعيم يعرف كثيراً، كل شيء».

فتى آخر، هو أيضاً من أحد الكيبوتسات، ابن ثلاثة عشر عاماً، تطلّع في جوابه على الاستفتاء نفسه إلى أن يكون «مثل» إنسان متفوق آخر، لكنه بدوره أبيض البشرة وينشر سلطته على مناطق وحشية. ومما قاله في هذا الشأن:

«يعجبني طرزان، وأرغب بأن أكون مثله. إنه قوي، بطل، شجاع، عاقل وسريع».

قصص طرزان، إذاً، هي السلسلة المترجمة الثانية التي استأثرت بإعجاب أولاد اسرائيل وفتيانها، بالإضافة إلى كتب «كارل ماي».

ورغم أن هذه السلسلة، التي ألفها «إدغار رايس بورواز»، تعرضت لحملة انتقاد حادة اعتبرت، ضمن أشياء أخرى، أنها لا تمت إلى الأدب بصلة ورغم فرض حظر على إدخالها إلى المكتبات العامة الأميركية والبريطانية، إلا أن ذلك لم ينتقص من شعبيتها. ويثبت ذلك أن العديد من القراء الصغار، الذين رأوا في طرزان تجسيداً لأحلامهم في العودة إلى الفردوس المفقود والحياة في الأدغال بين القردة والفيلة وتسلق قمم الأشجار والغوص في أعماق الأنهار وخوض القتال ببطولة وتحقيق النصر بقوة العضلات (أو بمساعدة الخنجر)، أخذوا يطالبون بالمزيد والمزيد من هؤلاء الطرزانات. واستجاب الكاتب، برغبة شديدة، مع هذا المطلب فاعتكف في عزبته «طرزانة» (في ولاية كاليفورنيا الأميركية)، وخلال نصف يوبيل من السنوات كتب خمساً وعشرين قصة في سلسلة طرزان – بمعدل قصة جديدة كل سنة – دون أن يكلّف نفسه عناء تفحص صحة الكثير من التفاصيل الجغرافية والمتعلقة بعلم الحيوان. ولهذا عادة ما تعجّ قصصه بالمعلومات الكاذبة والمشوّهة.

لدى كتابة هذا المقال، بلغ ما ترجم من قصص طرزان إلى اللغة العبرية أربعة عشر كتاباً. وألهبت هذه الكتب خيال أجيال كثيرة من القراء الصغار في إسرائيل. شخصياً ما زلت أذكر حتى الآن كيف كنّا، أنا وصديقي، نلعب سوية مع «طرزان» بين أغصان الشجر من خلال قراءة فصول قصته التي نشرت على حلقات متتابعة في صحيفة «عيتونينو» (جريدتنا) في ١٩٣٣.

وفي الحالة التي نحن بصددها أيضاً حاول المترجمون «رفع» المستوى الهابط لأسلوب الكتابة الأصليّ، لكن لم يكن في مقدورهم لجم سيل المغامرات العنيفة المتلاحقة بعضها في أثر بعض، أو تهذيب توصيفات

فظّة ووحشية مثل التوصيف التالي:

«جرَّ طرزان صاحب البشرة السوداء نحو غصن مرتفع وعلّقه عليه. بعد ذلك نزل إلى غصن واطئ وغرز في قلبه نصل سكين الصيد الذي كان في حوزته».

(من قصة «طرزان ملك القرود»، ص٦١).

أو مثل هذا التوصيف:

«ظلت حربة طرزان منغرزة في قلب عدوّه، ولهذا حارب بسيفه. وساعدته قوته الشديدة وسرعته المدهشة في التغلب على عدوين آخرين [...] لم يسبق أن صادف طرزان في حياته أناساً في مثل هذه الوحشية، قساة القلوب متعطشين للمعارك. وكان طرزان شديد الإعجاب بهم. لكن، هل مثل هؤلاء هم أبطال! هل مثل هؤلاء هم مقاتلون!».

(من قصة «طرزان المنقذ»، ص٦٧).

بعد «طرزان» انتقل أولاد إسرائيل لتقدير مجموعة «حسمبا» الصبارية، التي تعمل معاً كجسم واحد. ولقد اعترف مؤلف «حسمبا»، يغئال موسينزون، على مسامعي بأن تحمّس أولاد الكيبوتسات لشخصية طرزان هو الذي دفعه لكتابة قصص مغامرات بلغتهم الأم تكون بمثابة «بديل مناسب» لقصص المغامرات الأجنبية. فضلاً عن ذلك – أضاف موسينزون – فإن المناخ العام لتلك السنوات الذي تميّز بـ «النضال اليهودي والحرب من أجل استقلال اسرائيل» أتاح المجال لتقبل قصص المغامرات.

هكذا ولد الكتاب الأول في هذه السلسلة الذي حمل عنوان «حسمبا أو مجموعة السرّ المطلق بالتمام» (١٩٥٠، وقبل ذلك نشر على حلقات في جريدة «مشمار للأولاد»).

تدور أحداث القصة حول ثمانية أولاد أعضاء في مجموعة «حسمبا» – وهم القائد يارون زهاقي وتمار نائبته وإيهود السمين وعوزي أمين المستودع وموشيه يرحمئيل «البروفيسور» ومنشيه اليمني وزملاؤهم – يحاربون الشرطة البريطانية ويخلصون مخبأ الأسلحة التابع لـ «الهاغاناه» وينقذون في عملية جسورة قائد الحركة السرية من المعتقل ويوفرون الحماية لسفينة مغامرين ويحوزون على أوسمة تقدير من القيادة العامة.

حسمبا: قرب شارع في غزة/الكتاب الرابع عشر

وحظي هذا الكتاب بنجاح باهر (ومفهوم طبعاً!)، وظهرت في أعقابه على فترات متقطعة أربع وعشرون قصة أخرى من سلسلة «حسمبا». وفي الكتب الأخيرة من هذه السلسلة، التي صدرت قبيل كتابة هذا المقال بسنوات قليلة، وبينها «حسمبا في غزوة قناة السويس» (١٩٧٠) و«حسمبا في مواجهة الخاطفين أو فرسان الليل يضربون ثانية» (١٩٧٧)، ظهر جيل جديد من الحسمبائيين يقوده يوآف تسور ونائبته راحيل. وبدهي أنهما يتعاونان مع يارون زهاقي، مؤسس «حسمبا»، الذي أصبح الآن قائد دائرة المهمات الخاصة في الجيش الاسرائيلي.

خلقت سلسلة «حسمبا» ما يمكن اعتباره «موجة جديدة» في أدب الأطفال العبري، حسبما بشرت بذلك صحيفة «هآرتس» في ملحقها الأسبوعي حين كتبت تقول:

«لقد ظهر عندنا أخيراً أبطال شبان عبريون، مثل يارون زهاقي، القائد الشجاع لمجموعة حسمبا، مع سلاح عبري وحتى مع محتالين عبريين» (١٩٧٠/٤/١٠).

وفي مقابلة مع صحيفة «دڤار» (نشرت في ١٩٧٠/٦/١٧) شرح موسينزون سرّ نجاح «حسمبا» بقوله:

«استجابت كتب حسمبا مع غريزة المغامرة المتأصلة فينا جميعاً، وخصوصاً لدى الأولاد. يصعب أن تجد ولداً لا يتماثل مع فتيان في مثل عمره ينفذون عمليات عادة ما يكون تنفيذها من نصيب البالغين. عمليات

منسجمة تماماً مع قدر كبير من الخيال والدقة في تطبيقها وفي قيمها المقدسة مثل الصداقة والتضحية وحب الوطن».

وعلى أية حال ففي جميع القصص الخمس والعشرين، التي صدرت حتى الآن، يخوض أولاد حسمبا (غالباً بواسطة السلاح) معارك مختلفة ويتغلبون على لصوص الخيول وجواسيس سلاح الجو وعلى مجهول يرتدي قناعاً أسود، وسائر الأنذال، ويتخلصون من أسر الجيش العربي ويتعاركون دون وجل مع من هم أشد منهم بأساً وعنفاً، كما يعبّر عن ذلك المقطع التالي:

«... في أثناء ذلك كان مسعود قسيس ويارون زهاڤي متعانقين ومتلاصقين يوجّه كل منهما إلى الآخر ضربات موجعة ودقيقة، غير أن عوزي هبَّ لمساعدة يارون، وسدّد صوب الجاسوس لكمة جانبية جعلته يركع ويسقط أرضاً».

(من قصة «حسمبا والجواسيس في سلاح الجوّ»، ص١٤٤)

عند هذا الحد يجدر ذكر أن الكتابين الأول والثاني فقط من سلسلة «حسمبا» كتبها موسينزون بأسلوب ساخر فيه قدر من المعقولية، لكنه بعد ذلك انتقل لتسلية جمهور قرائه بواسطة سخرية هابطة ورخيصة وضعها على ألسنة الأخيار والأشرار على حدّ سواء. وهذا المستوى الهابط والرخيص من أسلوب كتابته أخذ في الازدياد سوية مع جعل كل فرد من أعضاء مجموعة حسمبا أشبه بسوبرمان صغير، ومع جعلهم جميعاً يجيزون لأنفسهم أخذ زمام القانون في أيديهم ضد الأعداء، وتوجيه سهام استخفافهم نحو عالم الكبار وحتى نحو عالم الأهل. وإليكم هذا النموذج بشأن الاستخفاف بعالم الأهل: في أحد لقاءات المجموعة، التي تجري في مقبرة (لماذا مقبرة بالذات؟) يقول إيهود لداني (الذي حظر عليه أهله المشاركة في عمليات حسمبا):

« – إذا كنت راغباً بسماع الحقيقة فإن العديد من الأولاد يتملكهم الحسد منك ومنّا جميعاً لأننا أعضاء حسمبا وهم ليسوا كذلك!. لكن إذا كان لديك أهل... إذا كان لديك أهل... إذا ربّيت أهلاً مثل هؤلاء... ولم تمنحهم تربية معقولة... .

– هل تريد القول إنهم جبناء؟، سأل داني بحزن بالغ.

– غير مهم، غير مهم، غمغم داني!».

(من قصة «حسمبا في أسر الجيش العربي»، ص٩).

النتيجة المطلوب استخلاصها من ذلك ضمناً هي: إذا حظر عليك أهلك، أيها القارئ الصغير، المشاركة في عمليات تنطوي على أخطار ففي ذلك إثبات على أنك «ربّيت» أهلاً خطرين، ومن حقك أن تتمرد عليهم وأن تذهب إلى عمليات كهذه، رغم حظرهم. وهذا هو ما فعله داني حقاً، إذ أنه تمرد على أهله وانطلق إلى القيام بعمليات يقف لها شعر الرأس.. و«بعد ثانية ستسدد اللكمات ويسمع أزيز الرصاص من المسدسات في فضاء الكهف».

تتمثل الخطورة الرئيسة من هذه السلسلة في كونها حظيت ولا تزال بأكبر شعبية في صفوف القراء الصغار. وفي استفتاء أجرته إحدى المربيات في ١٩٦٧ حول أكثر الشخصيات الأدبية شعبية في أواسط الأولاد، تبين أن الشخصية التي حازت على أكبر نسبة من المعجبين هي شخصية يارون زهاڤي من حسمبا، في أوساط الفتيان، وشخصية تمار من حسمبا أيضاً، في أوساط الفتيات.

وحسبما أشير في سياق سابق كانت «حسمبا» الطليعة الأولى التي فتحت الطريق أمام نبع عكر من سلاسل مماثلة مختلفة غمرت حوانيت بيع الكتب وقائمة كتب المطالعة لدى الأولاد. وهي، في غالبيتها، أدنى مستوى من «حسمبا» وبينها على سبيل المثال: «مغامرات أولاد البلدة القديمة» (١٩٥٢ – ١٩٥٨) تأليف حاييم الياف و«حبو عوز» تأليف حاييم غيبوري و«جماعة تشوبتشيك» تأليف أرنونا غدوت و«جماعة الزملاء» تأليف ت. أورجيل وغيرها وغيرها. لكن لا شك أن أكثر الكتّاب غزارة في إنتاج مثل هذه السلاسل هو شراڤا غفني، الذي كتب أيضاً بأسماء مستعارة مثل أڤنير كرميلي وأون شريغ وإيتان درور، وقد دفع إلى السوق خلال سنوات معدودة سلاسل رائجة وهابطة يفوق عدد كتبها حتى الآن المئة كتاب.

أضرار الأدب الفاسق

منذ الخمسينيات في القرن العشرين تحاول عشرات طواقم البحث في دول أوروبا وأميركا دراسة مدى تأثير أدب المغامرات والعنف على سلوكيات القراء الصغار. ورغم عدم التوصل إلى إثباتات قاطعة في هذا الشأن، يسود في أوساط رجال التربية رأي عام يقول بوجود علاقة متبادلة بين قراءة هذا الأدب وبين ارتفاع نسبة الجريمة والجنوح بين الشبان الأحداث. بل إن باحثاً تربوياً إسرائيلياً نشر في ١٩٥٥ دراسة حول هذا الأدب وتأثيره على تربية الأجيال تحت عنوان صارخ هو «معمل لإنتاج مجرمين صغار». وفي الستينيات أشارت لجنة تحقيق رسمية عينها مجلس الشيوخ الأميركي إلى وجود رابطة وثيقة بين الانتشار الواسع لكراريس الـ «كوميكس» الصارخة (وبالأخص تلك التي تصف بإبراز شديد العنف الوحشي وتدعو إلى تقديس شخصية الزعيم) وبين تواتر محاولات عصابات للفتيان من أجل فرض هيمنتها على أحياء كاملة

في عدة مدن أميركية، حتى أنها أوصت بحظر توزيع هذه الكراريس. لكن السلطات الأميركية قررت في نهاية المطاف أن تلزم ناشري تلك الكراريس بعرضها على لجنة رقابة خاصة من أجل فحصها من ثم إقرارها.

وتجري في إسرائيل أيضاً، بين الفينة والأخرى، أبحاث تتناول تأثير كتب المطالعة على سلوكيات الأولاد والفتيان. وفي استطلاع للرأي أجرته «مؤسسة سالد» بعد مرور عقد من السنوات على قيام الدولة تبين أن «قراءة الأدب الفاسق هي ظاهرة عامة. وتقريباً كل فتى وفتاة يقرآن هذا الأدب، ونسبة قراءته تزداد طرداً مع تقدّم الجيل. وبينما تشكل هذه القراءة لدى فئات اجتماعية عليا ظاهرة عابرة وبنسبة ضئيلة مقارنة مع نسبة قراءة الكتب الجيدة، فإنها لدى الفئات الاجتماعية الدنيا تشكل ظاهرة مستمرة وتعتبر القراءة الأرأس».

لكن إذا نحينا كل ذلك جانباً، فإن هناك مجالاً واسعاً للإعتقاد بأن هذا الأدب، على شاكلة سلسلة «حسمبا» وما تلاها من سلاسل أكثر فسقاً وسوءاً، تمارس تأثيراً كبيراً على قرائها من خلال مواجهتهم مع واقع حياة وعلاقات إنسانية يتم تصويره بضوء كاذب ومشوّه. تكفي الإشارة إلى الفوارق الحادة، التي تجهد هذه الكتابة في توصيفها، بين الأبطال الإيجابيين وهم دائماً يهود ذوو خصائص نبيلة لا تشوبهم شائبة ومتفوقون ويعملون معاً، وبين الأبطال السلبيين، وهم دائماً نماذج وحشية، ظلامية، متعطشة للدم، جبانة، خائنة، مبتذلة، مختلسة، ذات مظهر منفر، زاعقة، بذيئة اللسان، وطبعاً تحمل أسماء مثيرة للهزء مثل زكي خلطورة ومسطول بندورة وطورطورة وكوكورتشا ومارملدا.. وما إلى ذلك.

ولا حاجة للإضافة أن هذا التوصيف التقاطبي حيال «الأشرار المتعطشين للدم» من شأنه أن ينمّي في أوساط القراء الصغار كراهية عمياء للعرب واستهتاراً بقوتهم وفهمهم. وهذه الكتب لا تربي هؤلاء القراء على الاستهتار بالعرب فقط، وإنما أيضاً على الاستخفاف بحياة الإنسان لمجرد كونه إنساناً.

السؤال، إذاً، هو: كيف يمكن أن نلجم مثل هذا الخطر الذي يتم تعريض أولادنا له؟.

منذ أن بدأت هذه السلاسل العنصرية، الخطيرة والفاسقة، تغمر السوق وتأسر قلوب القراء الصغار علت أصوات قليلة بين الأهل والمربين تدعو إلى خوض حرب ضدها. بعض المربين طالب بفرض رقابة جماهيرية على أدب الأطفال. أنا شخصياً نشرت في صحيفة «دڤار» (عدد ٣٠/ ١٠/١٩٦٥) مقالاً «حول الغذاء الروحي الفاسق المقدّم إلى صغار القراء» أنهيته بالعبارات التالية التي لا تزال صالحة حتى الآن:

حسمبا والمجهول على الحدود الشمالية / الكتاب السادس عشر

«الأغلفة الملونة – الضاجّة لهذه الكتب تصرخ: الحذر – سمّ قاتل! لقد حان الوقت لكي يستفيق الرأي العام على خطورة هذا «المعمل». في جميع الأقطار تندرج أمثال هذه الكتب في عداد «القوائم السوداء» للمجلات التربوية والأدبية. وهذا الأمر ينبغي أن يتم العمل به عندنا أيضاً. وربما حانت الساعة التي يتعين فيها تشريع قانون خاص يحظر إنتاج وتسويق هذا «الغذاء» الروحي الخطير والفاسق».

الباحث أدير كوهين: موقف مسبق، وحشي وخطير!

ربما يتجوهر أهم ما يقوله أوريئيل أوفك، في السطور السالفة، في تحذيره من خطورة نشوء نمط معيّن من الإدراك والتفكير يتولد تلقائياً من مسائل، أشبه بالبدهيات المسلّم بها، راسخة في العقل.

ولعل أكثر «ميزان» يمكنه أن يفحص النمط المعين هذا من الإدراك والتفكير هو الموقف من الإنسان العربي، من حيث أن هذا الموقف يتربى عليه كل يهودي إسرائيلي منذ الصغر ويكبر معه (ويتكرس، كذلك، بتأثير من الواقع السياسي – الاجتماعي الاسرائيلي).

فما هي أحكام هذا الموقف؟ وكيف تتولد، بتأثير من الأدب العنصري، لدى الأجيال الفتية؟.

هذان السؤالان شكّلا موضوع الاستطلاع الذي أجراه المحاضر في جامعة حيفا، البروفيسور أدير كوهين، بين طلاب الصفوف الرابعة والخامسة والسادسة في مدارس حيفا. وقد أرفق الباحث نتائج الاستطلاع بمقدمة كتاب له حول «انعكاس شخصية العربي في أدب الأطفال العبري» (صدر في ١٩٨٥، عن منشورات «رشفيم»).

شارك في الاستطلاع (٥٢٠) طالباً حيفاوياً من الصفوف المذكورة طُلب إليهم أن يكتبوا حول خمسة مواضيع، وهي:

* أولاً: ما هي التداعيات التي يثيرها سماع كلمة: عربي؟!

* ثانياً: كتابة قصة أو وصف قصير أو موضوع إنشاء حول لقاء مع عربي.

* ثالثاً: تلخيص كتاب قرأوه وينطوي على وصف للعربي، وشرح مؤثراته عليهم.

* رابعاً: محاولة شرح أسباب النزاع مع العرب.

* خامساً: المجاهرة بآرائهم فيما اذا كان إحراز السلام ممكناً، وفيما إذا كان ممكناً قيام حياة صداقة وتعاون مع العرب.

كانت مستحصلات الاستطلاع ما يلي:

١ – مستوى الخوف من العربي عال بشكل مذهل. ففي أكثر من ٧٥ بالمئة من الإجابات ترافقت شخصية العربي مع «خاطف الأولاد» و«القاتل» و«المخابرات» و«المجرم» وأشباه ذلك.

٢ – تجريد شخصية العربي تجريداً سلبياً (قولبتها)، وهو تجريد مكرّس في أدب الأطفال العبري، طاغ على الأسئلة الخمسة التي طلب إلى الطلاب الإجابة عليها. ففي حوالي ٨٠ بالمئة من الإجابات تأطرت تشابيه العربي في العبارات التالية: «يعيش في الصحراء» و«صانع الخبز» و«يلبس الكوفية» و«راعي بقر» و«ذو سحنة مخيفة» و«في وجهه ندبة»، و«قذر ونتن» و«تنبعث منه رائحة كريهة» وغيرها.

٣ – الجهل التام، بين أوساط الطلاب اليهود، لشكل العربي وهيئته وهندامه وتاريخه وعاداته. فبعض الطلاب قال إن العرب «أصحاب شعر أخضر» فيما أكد البعض الآخر أن «العرب لهم ذيول»!

٤ – تسعون بالمئة من الطلاب يتنكرون لحق العرب في البلاد، ويؤمنون بأنه ينبغي قتلهم أو شنقهم أو ترحيلهم.

٥ – فقط قلائل من الطلاب حاولوا شرح أسباب النزاع مع العرب بقدر مناسب من التفصيل، فيما اكتفى الباقون بجمل مقتضبة ومبتسرة من سياق التاريخ مثل: «إنهم (أي العرب) ينوون قتلنا.. وتشريدنا من البلاد.. واحتلال مدننا. وقذفنا إلى البحر»!!

٦ – غالبية الطلاب الذين يرغبون بالسلام يرون أن «السلام» ينبغي أن يعني تسليم العرب بالسيادة الاسرائيلية على «أرض اسرائيل الكاملة»، بما في ذلك الضفة الغربية وقطاع غزة.

إن هذه المستحصلات هي النصف الأول من العنصرية التي تضعها الصهيونية في «منبت رؤوس» مريديها منذ الصغر.

يبقى النصف الآخر، الذي لا يقل أهمية، وهو ما ورد في إجابات الطلاب على أسئلة الاستطلاع ومواضيعه.

ولتقديم أمثلة على هذا «النصف» نقدم، تالياً، نماذج مقتطعة من الإجابة:

رداً على السؤال الأول (التداعيات التي يثيرها مجرد الاستماع إلى كلمة عربي) ردّ (ر.ش) بقوله: «مجرم، وسخ، نتن، راعي بقر، مختطف، لصّ، غريب، فلاّح، عامل بناء».

وكتب (ي.ع): إن «سحنته غريبة، عصبي المزاج وحانّون، ذو شعر أخضر، شرير، مخبول، متشرد».

وكتب ثالث، رفض توقيع اسمه: إنه «عدو، خنزير، لصّ، مخبول، جلده غامق».

وكتب رابع، رفض هو الآخر توقيع اسمه: «يجب أن نقتل العرب.. وأن نجلسهم على كرسي كهربائي. وأن نعلّقهم على أعواد المشانق. وأن نطردهم من البلاد – أنا كهانا».

وجواباً على السؤال الثاني (كتابة قصة أو وصف أو موضوع إنشاء عن لقاء مع عربي) كتب أحد الطلاب ما يلي: «صعدت إلى الباص.. جلست. صعد إليه عربي. وجلس بمحاذاتي. فكرت فوراً أنه يجدر بي أن أنتقل إلى مقعد آخر. انتقلت. وانتقل العربي إلى المقعد ذاته. وفكرت أنه يخطط ضدي شيئاً ما. همّ العربي بالنزول، لكن السائق منعه وقام باستدعاء البوليس، الذي ساقه إلى السجن».

وكتب الطالب (ي. ع): «عندما سافرت إلى القدس جلس بمحاذاتي صبي عربي كان ينتعل حذاء ممزقاً ويرتدي ملابس رثة. كان لونه أسود وتنبعث منه رائحة كريهة. فقمت من جواره لأنني لا أريد أن أجلس

بمحاذاته».

وكتب (ج.ل.): «سافرت في الباص. وفجأة جلس بمحاذاتي صبي عربي.. هممت أن أقوم، فقال إنه سيمسني بسوء. رأيت أن بحوزته سكيناً حاداً. فجأة وقفت على قدميّ. فأخرج الصبي العربي السكين وحاول أن يقتلني. أسقطته أرضاً وأخذت السكين. فجأة لمحت شيئاً مشبوهاً. فنقلت الأمر إلى سائق الباص، الذي اتصل فوراً بالبوليس. وجاء البوليس فطلبت منه أن يحقق مع الصبي العربي. وفي التحقيق كشف العربي عن مكان سكناه. وقام البوليس بسجنه وأفراد عائلته لمدة عشر سنوات ثم أخلى سبيلهم».

ولدى توقف الباحث عند أدب الأطفال العبري وتأثيره على القراء (وهو موضوع السؤال الثالث في الاستطلاع) يخلص إلى القول إنه ضمن حصيلة كتب الأطفال المعروضة في السوق حتى تاريخ إجراء الاستطلاع والتي يقبل عليها «القراء الصغار» لا تزال غالبية هذه الكتب تشوّه شخصية العربي وتنمي بين أوساط قرائها مشاعر الكراهية للعرب والاستخفاف بقوتهم وبمقدرتهم العقلية.

ويرد الباحث ذلك إلى واقع أنه في الخمسينيات والستينيات كان الاتجاه الطاغي، بشكل تام على أدب الأطفال العبري هو اتجاه تشويه شخصية العربي. أما في السبعينيات (وتحديداً في أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣) والثمانينيات، فبتنا نجد بعض القصص النادرة التي تحاول أن تقدم بطلاً عربياً يمكن أن يكون ذاته الإنسانية، فاتحة الباب بذلك لتحول بسيط صوب التعامل مع شخصية العربي كإنسان وصاحب حق. ومن هذه الكتب النادرة أعمال دفوره عومر وبنيامين تموز ودوريت اورغاد وموشيه بن شاؤول. إلا أن هؤلاء الكتّاب – يؤكد الباحث – حاولوا في قصصهم أن يتعاملوا مع العربي بضوء ايجابي في مواجهة نوع من حالة توبيخ الضمير (شعبهم يضطهد شعباً آخر) أو في سبيل دفع ضريبة كلامية والتظاهر بالليبرالية. ولهذا طغت على نتاجهم سمات الصنعة والافتعال. وبدا العربي في هذا النتاج شيئاً من أشياء الطبيعة يحبه البعض كما يحبّ زهرة برية. ولم تحمل شخصيته خصائص الحركة الفردية المستقلة، بل ظل يتحرك في إطار الشخصية العربية المستحضرة لأغراض اسرائيلية محضة – أغراض انتقاد المجتمع الاسرائيلي.

مقابل هذا الاتجاه، وعلى النقيض منه، بدأت تتغلغل في قصص المغامرات الرائجة أفكار «أرض اسرائيل الكاملة»! فالبطل المحوري لقصة «الرياضيون الصغار عائدون» لأفنير كرميلي هو صبي يعيش مع والديه وإخوته في مستوطنة كولونيالية في الضفة الغربية المحتلة. والأمنية الخفية، التي يطوي أضلاعه عليها، هي أن يزداد هنا وهناك، في الضفة الغربية، انتشار المستوطنات الكولونيالية بحكم أن «أية قوة في العالم ليس بمقدورها أن تقتلع شعباً من وطنه»!

ويشير بحث البروفيسور كوهين إلى أن غالبية كتاب قصص المغامرات اليهود يحملون أفكاراً مماثلة لأفكار أفنير كرميلي. والبعض منهم، الذي لا يوظف شخصية عربية، يضمن قصصه تشابيه مهيأة سلفاً توحي بموقفه من العربي. ومن هذه التشابيه: «الرائحة العربية» و«العمل العربي» و«التصرف مثل العربي» وغير ذلك. ويؤكد أن تأثير تلك التشابيه على تكوين وعي الأطفال الصغار مماثل للتأثير الذي يمارسه اتجاه تشويه شخصية العربي بشكل مباشر.

ويضيف كوهين أن قراءة هذا الأدب الفاسق هي ظاهرة عامة. ويكاد كل فتى يهودي في اسرائيل يقرأ هذه القصص، وتتكون لديه فكرة مسبقة، وحشية وخطيرة، عن الإنسان العربي، تكبر معه وتتكرس.

أما بالنسبة للسؤال الرابع (أسباب النزاع مع العرب) فقد أبدى الطلاب اليهود جهلاً مطبقاً في معرض الإجابات عليه. ويؤكد الباحث أن الجهل هو «دفيئة جيدة» لنمو الأفكار المتطرفة الجامحة.

وأخطر ما في هذه الأفكار المتطرفة الموقف من السلام، وهو موضوع السؤال الخامس والأخير في الاستطلاع. كتبت إحدى الطالبات رداً على هذا السؤال: «حسب رأيي يستحيل أن نتوصل إلى سلام، لأن العرب يكرهون اليهود».

والملفت للنظر، في هذا الصدد، أن عشرة بالمئة فقط من الطلاب قالوا إنهم يريدون السلام. واستنكفوا عن تفصيل شروطه ومواصفاته وإمكانات تحقيقه.

أما الرأي المناقض لذلك، فهو ما عبّر عنه الطالب (ع.ك) الذي كتب يقول:

«حسب رأيي يجب طرد العرب من البلاد، إذا استمروا في سفك دم اليهود لمجرد كونهم يهوداً. يجب طرد عائلة العربي ومن ثم طرد قريته برمتها. العرب هم بغالبيتهم كارهون لنا ولا نستطيع التوصل إلى سلام معهم لأنهم يعتقدون بأننا أخذنا أرضهم. أعتقد أنه يجب نقلهم إلى أية دولة ممكنة، لأن لهم عدة دول عربية ولنا فقط دولة واحدة. وبسبب سفك الدماء في هذه البلاد يظهر أشخاص مثل كهانا ويطالبون، بحق، بطرد العرب من البلاد».

وفي نهاية الاستطلاع يقول الباحث أن الواقع الذي أظهره يحبطه ويبهظه. ويعلن كفره بمقدرة الأساليب التربوية المتبعة في المدارس اليهودية على أن تشكل «بديلاً إنسانياً» لهذا الأدب الفاسق.

إن مرد إحباطه – حسبما يؤكد – هو أن أدب الأطفال العبري يفرض على الأطفال اليهود واقعاً يتربون في ظله، دون عيشهم طفولة ساذجة بريئة. فضلاً عن أنه ينمي في نفوسهم مشاعر القلق والتوتر والخوف من المستقبل.